مجلة أنثروبولوجيا P-ISSN: 2437-041X
مجلد: 06 عدد: 01 السنة 2020 E-ISSN:2588-2325

جدلية الخوف والمقدس في اعتقادات الإنسان البدائي

The dialectic of fear and holiness in primitive human beliefs

هاتي نورية، جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم، الجزائر ، hatinouria@yahoo.com*

تاريخ الإرسال: 2020/01/28 تاريخ القبول: 2020/05/16 تاريخ النشر: 2020/06/27

ملخص:

يعتبر الخوف لدى الإنسان فطرة جُبِل عليها، ولهذا فقد عبّر منذ الأزمنة الغابرة عن تخوفاته من الظواهر الغريبة والمفاجئة، لاسيّما ما تعلّق منها بأثر الظواهر الطبيعية على نفسيته: كالزلازل والبراكين والكسوف والفيضانات...، وباعتباره مخلوقاً عاقلا، سيتاح له أن يلاحظ ويستنتج ويبحث عن حلول للمعوقات التي تحول دون تمتعه بالهدوء، ولعله لم يجد حلا أفضل من تقديس وتأليه القوى التي تسيّر تلك الظواهر. ونروم في هذا البحث أن نبرهن أن الخوف والتقديس يسيران جنبا إلى جنب في اعتقادات الإنسان البدائي، وأنهما يتولدان عن بعضهما البعض ليشكلا دورة مستمرة، تبدأ من خوف الإنسان من المجهول وتنتهي بتقديسه للقوى التي تسيره، هذا التقديس الذي سرعان ما يولّد هو الآخر خوفا معادلا للخوف الأوّل، لتكتمل دورة الخوف منه وإليه تلحقها دورة التقديس منها وإليها. مسلطين الضوء على ما أورده الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه في كتابه مولد التراجيديا، حين استند على معتقدات الإغريق القدامى.

الكلمات المفتاحية: الخوف، التقديس، المعتقدات البدائية، نيتشه.

Abstract:

Fear is considered as an innate element in human being. Since ancient times, man has expressed his fears of strange and surprised phenomena, especially what is related to the effects of natural phenomena on his psychology such as: The Earthquake,

* المؤلف المرسل

Volcanoes, Eclipse and Eclipse ...As a rational créature, he will be able to observe, deduce and infer solutions to obstacles That prevent him from being quiet.

And perhaps he did not find a better solution than the sanctification of the forces that are going on these phenomena, And in this research, we want to demonstrate that fear an sanctification go hand in hand in primitive human beliefs, and they are born from each other to form a continuous cycle, starting from the fear of the human from unknown and ends with his sanctifying to the forces that lead him. The sanctification, wishes soon born again, for fear equal to the first fear , to complete the cycle of fear and to be followed by the cycle of sanctification to and from, shedding light on what the Germen philosopher « Friedrich Nietzsche » write in his book « The birth of Tragedy », based on the beliefs of the ancient Greeks.

Keywords: fear, sanctification, primitive beliefs, Nietzsche

يعتبر **الخوف**[1] لدى الإنسان فطرة جُبِل عليها، ولهذا فقد عبّر منذ الأزمنة الغابرة عن تخوفاته من الظواهر الغريبة والمفاجئة، خاصة ما تعلّق منها بأثر الظواهر الطبيعية على نفسيته: كالزلازل والبراكين والخسوف والكسوف والفيضانات.. وباعتباره مخلوقاً نموذجياً متميزاً عن سواه من المخلوقات بميزة العقل والتفكير، سيتاح له أن يراقب عن كثب ويلاحظ ويستنتج ويبحث ويتقصى عن حلول للمعوقات التي تحول دون تمتعه بالهدوء والعيش بمنأى عن أيّ تهديد. وانطلاقاً من هذه الخصوصيات والهبات الإلهية فقد أدرك أن الرحيل من مسكنه إلى مكان أكثر أمنا، أو اللجوء إلى الهرب كردّ فعل متكرر لا يعدّ حلا ملائما وسليما، يمكن أن يعتمد عليه بقية حياته لحماية نفسه وممتلكاته من الأذى. وبما أنه يعيش في كنف الطبيعة ولا يملك مخالب ولا

[1] يعرّف الفيلسوف اليوناني أرسطو **الخوف** بأنه "حزن واختلاط لازمين عن تخيّل شرٍّ يُتوقع في المستقبل ويمكن أن يحدث فساداً مهلكاً أو أذى: لأننا نخشى جميع الشرور (...) التي يمكنها أن تجلب لنا الأحزان المهولة أو المهلكة (....) وأيضاً ليس يخاف من الشرور ما كان متوقعًا حدوثه في الزمان البعيد بل ما كان متوقعاً في الزمان المستقبل القريب." أرسطو، الخطابة، ترجمة: عبد القادر قنيني، المغرب، أفريقيا الشرق، د. ط، 2008، ص 116.

قرونا ولا أنيابا، فقد تعلّم أن يدافع عن نفسه ضد الحيوانات الضارية باستخدام بعض الأسلحة التي كانت من صنع يديه، واستخراجاً من الطبيعة ذاتها، ولأنّه تعلّم من قانون الطبيعة - باعتباره معلمه الأوّل – أن الحياة تقوم على الصراع من أجل البقاء، فقد اعتمده كحل مثالي ودائم في حدود القدرات التي تؤهلّه للذود عن ما يمتلك، لكنه بقي حائرا حيال الظواهر الطبيعية التي تباغته بين الحين والآخر، بل وتتجاوز حدود قواه، فلا هو يمتلك سلاحا يجابهها به، ولا قوة تصدّ جبروتها، فهل بقي حبيس التأمل والتفكير المغلف بالخوف والرهبة؟ أم أنه قد تفطّن بعقله إلى حل ينجيه أو يقلص حجم معاناته؟ وما مدى صلاحية هذا الحل ومناسبته للأوضاع التي ترافق عيشه؟

أ/ تبلور الخوف الفطري إلى مقدس:

من المعروف"أنّ شروط وجود الإنسان القديم الطبيعية كانت محاطة بالكثير من الظواهر الغامضة ومتأثرة بالعديد من المعطيات المجهولة، لهذا فقد تركزت مجسات وعيه حول كيفية استنباط عللها وانتحال أسبابها، نتيجة كونها عصية على البوح بطبيعتها، وشحيحة بالإلماح عن مصادرها، وهو الأمر الذي ساقه إلى الاعتقاد بأن قوى خفية تتحكم بأنشطتها وتوجه مساراتها وتحدد فاعليتها بحيث استلزمته هذه الوضعية للبحث عن سبل تجنب غضبها"[1]

من هنا تغدو الكوارث المفاجئة التي تحول دون تمتع الإنسان البدائي بالهدوء مثيرا قويا للخوف الفطري، الذي يميزه باعتباره كائنا حيّا تحفزه غريزة حفظ الذات ونشدان البقاء، ولأنه يدرك انطلاقا من صراعاته السابقة أن التصدي لقوى غير مرئية يصعب التكهن بمدى قوّتها أمرٌ عبثيٌ، فقد فضّل الانسحاب من الصراع والرضوخ لها تجنبا لغضبها. وفي القضية ذاتها يذكر الباحث جاك شورون أثناء شرحه لقول أبيقور أنّ" فكرة العامة عن الآلهة تنشأ من الخوف بإزاء ظواهر طبيعية مفزعة يفسرونها على أنها تجليات للغضب الإلهي."[2]

يبدو أنّ إحاطة الإنسان البدائي للظواهر الطبيعية بهالة من الغموض، باعتبارها خارج نطاق تفكيره واستيعابه، وتفسير حدوثها على أن قوى خفية تقودها وتسيرها، وهي في الآن ذاته

[1] ثامر عباس، تقديس الزعامة دراسة في ظاهرة الكاريزما السياسية، الجزائر/ الرباط، منشورات الاختلاف/ منشورات ضفاف، ط – 1/ 2015، ص 54.

[2] جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، ترجمة: عالم المعرفة، الكويت، 1984، ص 68.

تجليات لغضب الآلهة - وإن أبرزت محدودية تفكيره وسذاجته وضعف بصيرته وقصرها – إلا أنها تظل مقبولة في واقعه، الذي يبدو أنه تعلم منه عن طريق المشاهدة والمعايشة أنّ الأشياء لا تتحرك بمحض إرادتها، بل إنّ لكل حركة قوة تدفعها إلى الأمام، شأنها شأن الأشياء التي يمتلكها في محيطه والتي لا تغير مكانها ما لم يقم أحد بتحريكها، كما أن درجة الحركة هي من تحدد قوة المحرك، وأن القوى تختلف من كائن إلى آخر، وبالتالي فمحدودية قوته مقارنة بقوى الطبيعة قد ولّدت خوفا سرعان ما تبلور إلى إذعان ورضوخ ثم إرضاء ثم تقديس وتأليه.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان معروفا عنه أنّه "كان يستخدم خياله أكثر من استخدامه لعقله أثناء تفسيره لحقائق الكون"[1]، ولهذا لن نتعجّب إن بدا تفسيره غريبا عن الإنسان الحالي الذي تطور في طريقة استخدامه لعقله ما دام وعيه قد تطور مع مرور العصور، ومن خلال ما ورثه عن خبرات أجداده وما تعلمه من تجاربه اليومية.

ب/ شخصنة الآلهة وتغليف الخوف:

لقد عرفنا فيما تقدم أن تأليه الإنسان الأول لعناصر الطبيعة قد ولده خوفه منها وضعفه مقارنة بقوتها، بالإضافة إلى أن قلة حيلته حيال غيبيتها قد جعلته يلفّها بهالة من التقديس المغلّف بالغموض. وعلى الرغم من تألهه ورضوخه لها ومحاولته إرضاءها إلا أن معاناته معها لم تتوقف، كما أن خوفه منها ما لبث يتبلور إلى خوف مضاعف كلما تضاعفت قسوة الطبيعة، فهل دأب على تصوّره الأول لها باعتبارها مجهولة؟ أم أنه قد شكّل في ذهنه صورة جديدة لها؟ فإن كان الأمر كذلك فعلى ماذا اعتمد في تشكيله لهذه الصورة؟ ما مدى نجاح هذا التفكير في تغليف الخوف أو التوقي منه؟

لقد ورد في "**معجم الميثولوجيا القديمة**" للباحث **حسن نعمة** أنّ الإنسان قديما كان يعتقد "بأن الكون وما يعيش فيه موكول أمره إلى مجمع من الكائنات الحية هيئتهم كهيئة الإنسان، (والفرق الوحيد أنهم) يختلفون عنه بتفوّقهم جسديا وفكريا ولا ينال منهم الموت، وهم يديرون دفة العالم ويتحكمون بمصيره وفق خطط رسمت بعناية، هذه المخلوقات تسمى الآلهة، فهناك

[1] فضيلة عبد الرحيم حسين، فكرة الأسطورة وكتابة التاريخ، الأردن، اليازوري، ط – 1، 2009، ص 88.

آلهة مسؤولة عن السماء وأخرى عن الأرض والهواء والبحار... وما هذه الآلهة سوى تجسيد للقوى الطبيعية من شمس وقمر ونجوم...وأعاصير ونار وبرق...كلها تفوق قوة الإنسان وإدراكه "[1]

يبدو أن الطبيعة قد طوّقت اعتقادات الإنسان القديم، فلم تسمح له بتعدي إطارها، ذلك أنه حتى المعبودات التي عبدها لم تخرج عما هو مألوف فيها، فالمحرّك يجب أن يكون بقدر القوة التي تنتج عنه، ومادامت الكوارث الطبيعية أقوى من قوة الإنسان، فلا شك في أن ما يحركها أقوى من البشر كما أنه لا يتعرض للموت، غير أنه يشبهه في تفاصيل أخرى كالهيئة مثلا.

وبالمثل فقد عرف عن الإنسان السومري في العصور القديمة أنه "كان شديد التأثر -بحكم أسلوب حياته البدائية- بالظروف الطبيعية، إذ أحسّ من خلال تأملاته فيها ومن خلال صراعه المتواصل معها، لاسيّما تلك التي كان لها مساس مباشر بحياته اليومية، بأنّ في تلك الظواهر قوى أو أرواحا مما تسبب في هبوب الرياح والعواصف، وحدوث البرق والرعد، وهطول الأمطار وحدوث الفيضانات... وبالمثل فإنه عزا إلى مثل هذه القوى جميع مظاهر التجدد والعطاء من ظهور العشب وتفتح البراعم وتكاثر الحيوانات وكثرة الخيرات في فصل الربيع، ونتيجة لعملية التحدي والتفاعل المتواصلة بينه وبين هذه القوى فقد كان منطقيا أن يتصوّرها بهيئة البشر"[2].

وبالتالي فالخوف الذي لازم الإنسان السومري من الظواهر قد دفعه إلى تشخيص تلك القوى ورد مختلف مظاهر الحياة إليها بسلبياتها المؤذية وإيجابياتها النافعة. بالإضافة إلى أن "تعدد تجاربه قد أدى إلى عدم توافر وحدة فكرية بل مجموعة من الأفكار الدينية المترابطة في بعض الأحيان وغير المتكاملة أحيانا أخرى، وقد اتجه إلى البحث عن القوى الخفية الخيرة والشريرة التي اعتقد بتحكمها في عالمه الدنيوي والأخروي، وبدأ في محاولة تحديد مفهومها وتجهيز ما يلزم نحو اكتساب رضاها... (لذا فقد) اعتقد في وجود تنظيم جماعي لكافة القوى الإلهية وذلك في جمعية عمومية إلهية يسودها الحق والصدق، ويتجه بعضها إلى الظلم، ... (بل تعدى به الأمر إلى حد جعلها) تأكل وتشرب وتنجب وتحارب وتقتل وغير ذلك من مختلف ظواهر التصرفات الإنسانية

[1] حسن نعمة، معجم الميثولوجيا القديمة، بيروت، دار الفكر اللبناني، ص 18.
[2] ثامر عباس، تقديس الزعامة دراسة في ظاهرة الكاريزما السياسية، ص 114.

البحتة، (ولعله) كان يهدف من وراء ذلك إلى تقريب الصورة الإلهية من وجهة النظر الإنسانية حتى يستطيع الإنسان العادي الاعتقاد فيها دون صعوبة"[1].

يبدو أنّ تأثر السومري بعالمه الذي يعج بأفراد من بني جلدته، وكيفية عيشهم ضمن جماعات وتعايشهم على اختلاف طباعهم الخيرة والشريرة، بالإضافة إلى حاجتهم الفطرية إلى الطعام والشراب والتكاثر جعله يرسم للآلهة صورة من الطبيعة ذاتها التي تعوّدها في مجتمعه، لذا فقد صبغها بصبغته وشخّصها في هيئته وجعلها في حاجة إلى ما يحتاجه هو في العادة من مأكل ومشرب... بل تجاوز هذا الحد في التفكير درجة جعل منها حاملة لطباع بشرية، تتغير بتغير المواقف التي يتعرض لها نحو الشر تارة والخير تارة أخرى. ولا يختلف الكنعانيون كثيرا عنهم في تصورهم لآلهتهم، "إذ كانوا يتصورون أن لهوه شكلا إنسانيا ومقرا للسكنى وتدفعه العواطف الإنسانية من غيرة وغضب ولكنه كان إلها محاربا يقاتل دون هوادة لأجل شعبه ضد أعدائهم"[2]. والإنسان المصري شأنه شأن الهندي والسومري قد شخّص مظاهر الكون، "فكانت الأشجار والينابيع والأحجار والتلال والحيوانات هي مخلوقات حلّت فيها قوى غريبة لا سلطان له عليها، ومن ثم كانت الطبيعة أول مؤثر مبكر في عقله وصارت مظاهر الإلهية الأولى في نظره هي القوة المسيطرة على العالم المادي"[3].

وكذلك الشأن بالنسبة للأوغاريتي الذي "نظر إلى الطبيعة واعتبرها تمثل حياة الآلهة وكل ما يحصل في الطبيعة هو من عمل الآلهة وصراعها ضد بعضها البعض، وصراعها ضد الناس، وكثيرا ما يؤدي هذا الصراع إلى الإخلال بالتوازن على الأرض ثم يعاد هذا التوازن من جديد"[4]. وقد أعطى البابلي لآلهته صورة طبق الأصل عن صورته، فعلى الرغم من أنها آلهة إلا أنها تتمتع بالرغبات التي يتمتع بها من "أكل وشرب ورقص وسماع الموسيقى وزواج، كما أنهم يستنشقون العطور (حيث وجدت في المعابد الكثير من المباخر لحرق البخور)"[5]. وقد "تصور الفينيقيون آلهتهم

[1] حسين الشيخ، ديانات الأسرار والعبادات الغامضة في التاريخ، ص 31.

[2] محمد خريسات وآخرون، تاريخ الحضارة الإنسانية، ص 99.

[3] حسين الشيخ، ديانات الأسرار والعبادات الغامضة في التاريخ، ص 26.

[4] حسن نعمة، الميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، ص 71. أوغاريت (رأس شامرا): هي مدينة أو مملكة في شمال سوريا، عرفت حضارة راقية بلغت الذروة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

[5] حسن نعمة، الميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، ص 76 .(بتصرف)

بأشكال بشرية، تحدثوا معها وتعرفوا إلى أعمالها، وابتدعوا أشياء تمثلها أو ترمز إليها، كما صنعوا أنصابا عمودية الشكل ووضعوها في المكان المقدس من الهياكل وعبدوها على أنها رمز الإله وممثلا عنه"[1] "ولم يكن اليوناني مرهف الحس بالطبيعة...، فجبال بلاده كانت لا تزال من أسباب متاعبه، ولهذا لم تكن في نظره جذابة،... ولم تكن الطبيعة تثير عواطفه، بقدر ما كان يتخيله فيها من كائنات روحية، فهو يملأ الغابات ومجاري المياه في بلاده بالآلهة والأشباح، وإذا فكر في الطبيعة لم يكن تفكيره في جمال مناظرها، بل في أنها مكان تنعم فيه أرواح الأبطال الذين قتلوا في الميدان. وهو يطلق على جباله وأنهاره أسماء الأرباب الذين يسكنونها، ولا يرسم الطبيعة ذاتها بل يرسم بدلا منها صورا رمزية للآلهة التي تبعث فيها الحياة ... أو ينحت لها تماثيل ترمز إلى هذه الآلهة"[2]

"كما اعتادوا أن يشخصوا قوى الطبيعة ليزيّنوا مجرّداتها الجامدة بدفء ألوان خيالهم ويلبسوا واقعها العاري بجوخ جميل من خيالهم الأسطوري، ففضلوا لأنفسهم مجموعة آلهة وإلهات من الأرواح والجان الأقزام استمدوها من بانوراما الفصول، تقودهم في ذلك تبدلات أرزاقهم السنوية بينما تنتابهم عواطف متقلبة بين الرفض والفرح وبين السرور والأسى اللذين وجدوا فيهما تعبيرا طبيعيا عن تقلب الطقوس بين الغبطة والحزن، وبين العربدة والنواح."[3]

ولعل ذلك ما أوحى إلى هوميروس بإبداعه الذي ظهر من خلال ملحمتيه الأوديسة والإلياذة، إذ صوّر فيهما "الآلهة اليونانية في هيئة شخوص إنسانية لا تختلف عن البشر إلا في كونها تحمل سائلا في دمائها يضمن لها الخلود، وما عدا ذلك فهي عنده مثل الناس تتنازع وتحب وتكره وتكيد لبعضها بل تصل بها الشهوات إلى اتخاذ من شاءت من الرجال والنساء الإنسيين عشاقا وخليلات"[4]

[1] حسن نعمة، الميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، ص 91.

[2] ول ويريل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع/ المنظمة العربية للتربية، بيروت/ تونس، الجزء الثاني، المجلد الثاني.، ص 122، 123.

[3] جيمس فريزر، الغصن الذهبي، ص 504.

[4] - حربي عباس عطيتو، اتجاهات التفكير الفلسفي عند اليونانين، ، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، (ط- 1)، 2013، ص 29 (بتصرف).

وعليه، فإن أمر تقديس الطبيعة التي قهرت الإنسان البدائي وحيرته لم يكن تقديسا للطبيعة ذاتها بل للأرواح التي كانت تسكنها والتي أنزلها منزلة الآلهة، ثم تصورها في هيئة بشرية، فهي على الرغم من قدسيتها وعظمتها تبقى - في نظره – حاملة للصفات ذاتها التي يحملها ذلك أنها لا تحتاج إلى الطعام والشراب والزواج وسماع الموسيقى واستنشاق العطور فحسب، بل إن منها الخيرة التي تتكرم عليه بالثروات والمحاصيل الوفيرة وشتى النعم، ومنها الشريرة التي تفرغ جام غضبها عليه بالكوارث والمحن.

و"تصور النصوص الدينية القديمة الآلهة ككائنات إنسانية جبارة إلا أن لهم كل المعايب، فهم كذابون، جبناء ومخادعون ومتوحشون، وتصور الإنسان رازحا تحت رحمة القدر ومخلوقا للموت"[1]، ولعل ذلك ما جعله يحس بالحزن والكآبة[2]، ولكن على الرغم من ذلك فهي تختلف عن البشر العاديين في قوتها الهائلة، وإلا فلم حظيت بهذه الهالة من القداسة؟

إن ما يشد الانتباه لدى الهنود الأمريكيين أنه لا فرق عندهم بين الآلهة والبشر وحتى الحيوانات والنباتات إذ "تصف رواياتُهم عن الكونيات الواقعَ باعتباره استمرارا بين ما يسمى الآلهة والكائنات الأخرى (شريرة كانت أم خيرة). (...) وفي نظرتهم الميثولوجية يعتبرون أن الطبيعة التركيبية للكائنات واحدة: الأرواح المختلفة بما فيها الخالقون والأبطال الثقافيون والمخادعون والوحوش والحيوانات والنباتات وحتى الشمس والقمر والنجوم وأفراد البشر ... يشتركون في الطبيعة ذاتها، فكلهم واعون وخالقون، ولهم القدرة على الكلام والتعاطف مع الآخرين. ومعظم هذه الكائنات تستمر في الوجود، وهم يستخدمون قوتهم بدرجات متفاوتة ولأغراض متفاوتة"[3].

[1] مرغريت روتن، تاريخ بابل، ص 157.

[2] يقول جاك شورون في كتابه الموت في الفكر الغربي: "لم يسيطر هذا الضرب من اليأس والإحباط على شعوب الحضارات القديمة في وادي النيل وبلاد ما بين النهرين وفلسطين وحسب، وإنما كذلك على أولئك الذين قطنوا المستعمرات اليونانية في لآسيا الصغرى، (فقد) تأثر الأيونيون بعمق على نحو ما نرى في آدابهم بالطابع الزائل للأشياء... فنجد مميروموس الكولوفوني وقد شغله الحزن الذي يثيره مقدم الشيخوخة بينما في تاريخ لاحق يعزف سايموناید، وهو يبكي سقوط أجيال البشر كوريقات الشجر في الغابة، على وتر سبق أن عزف عليه هوميروس، بالفعل"، جاك شورون ، الموت في الفكر الغربي، ص 28.

[3] حنا عبود، الميثولوجيا العالمية، ص 313.

ومنه فالذي يصنع الفرق الجوهري بين الكائنات على تعددها عند الهنود الأمريكان ليس أشكالها الظاهرية، ولا أسماءها ولا أمكنتها التي تقبع فيها سواء كانت في الأعلى أو في الأسفل أو على الأرض، إنما درجة استخدامها لقوتها، ذلك وحده الذي يحدد الفرق ويمنحها مركزا فوقيا أو دركا في الحضيض، فالتركيبة واحدة لكن شدة القوة تتفاوت من كائن لآخر وهي التي تجعل من الكائن إما مقدسا وإما عاديا. وتجدر الإشارة إلى أنه "عندما اكتشف المصريون فن التحنيط أعطوا الأرواح الميتة فرصة أخرى للعيش من خلال الحفاظ على أجسادهم من التفسخ مدة مفتوحة، وبهذا الاختراع أخذت الآلهة كما أخذ البشر فرصة إضافية لأمل إضافي في الخلود، وصارت كل منطقة تخصص قبرا ومومياء لإلهها الميت وهكذا كانت مومياء أوسيريس عند ألمندي، كما فخر تيني بمومياء أنهوري، وتغنى هيليبولي بمومياء تومو. أما كبار الآلهة عند البابليين فكانوا يظهرون لعبدتهم في الأحلام والرؤى على شكل أجساد بشرية بكل ما فيها من عواطف فنائية، فهم يولدون إلى هذا العالم مثل سائر البشر."[1]

بهذا نخلص إلى أن الرهبة التي صاحبت الظواهر الطبيعية بسبب تهديدها الدائم لهدوء الإنسان وراحته وطمأنينته وقضائها على أعداد هائلة من بني جلدته قد جعلته يهتدي إلى فكرة مفادها أن تلك الظواهر تخضع لقوى خفية تقودها نحوه، وهذه القوى لا تختلف عنه في تركيبتها ولا في طبيعتها، كما أنها تتمتع بالرغبات نفسها التي يتمتع بها، وتنتابها أحاسيس كالتي تنتاب البشر، والفارق الوحيد أنها تملك قوة أفضل من القوة التي يمتلكها، والتي ستشكل خطرا عليه إن هي صوبته نحوه في حالة غضبها أو غيرتها أو طمعها، وما عليه في المقابل – ما دام لن يقدر على مجابهتها - إلا أن يرضيها قدر استطاعته. لكنه عرف في المقابل أن لكل قوة شريرة قوة خيّرة معادلة قد تنصفه أو تحميه إن هو استعطفها وطلب حمايتها. وبهذه الطريقة حاول الإنسان الأول أن يغلّف الخوف الذي لاحقه جراء صراعه مع قوى الطبيعة، وذلك بتقريب صورة القوى الغيبية إلى صورته طمعا في إيجاد قوى خيّرة تحمية وتذود عنه.

[1] جيمس فرايزر، الغصن الذهبي في دراسة السحر والدين، ترجمة: نايف الخوص، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، (ط – 1)، 2014، ص 348.

الخوف وميلاد المقدس عند نيتشه[1]:

يتساءل نيتشه في معرض حديثه عن الأصول الدينية للفن التراجيدي عن: "الحاجة الماسة التي أنجبت ذلك المجتمع من **الكائنات الأولمبية**"[2] لدى اليونان. ويحاول أن يقدم إجابة للسؤال الذي طرحه فيقول: "كان اليونانيون يدركون ويشعرون بالمخاوف والرعب في الحياة، حيث كان يتعيّن عليهم لمجرد الاستمرار بالعيش أن يحشروا حلم الولادة الرائع للأولمبيين بينهم وبين تلك المخاوف."[3] وعليه فخلق اليونانيين للآلهة التي تسكن جبل الأولمب ما هي في الحقيقة إلا تصوّرات وضعوها واسطة بينهم وبين تلك القوى لكي يتخلصوا من ذاك الشعور المرعب الذي ينتابهم، لاسيما حين يشعرون بالعجز حيال الكوارث الطبيعية[4] أو بالحيرة والشك تجاه الأحداث المتناقضة التي سردت عليهم أو تحصل أمامهم.

يواصل نيتشه شرحه للقضية شافعا أياها بأمثلة استقاها مما مرّ باليونانيين من أحداث فيقول: "إن الانعدام المخيف للثقة في القوى العملاقة للطبيعة، روح مويراMoira المسيطرة بقوة على كل المعارف البشرية وجوارح الطير التي عذبت بروميثيوس صديق البشر، ثم المصير المأساوي لأوديب الحكيم، واللعنة التي حلت بسلالة الأتريديين، وإجبار أوريستوس على قتل أمه- وباختصار مجمل الفلسفة التي تجسّدت في إله الغابات إلى جانب الأمثلة الميثولوجية التي تسببت بسقوط أتروريا Etroscam، كل هذه الأشياء، ردّد اليونانيون أكثر من مرة أنهم قهروها أو غطوا عليها أو أخفوا معالمها على الأقل، إلى جانب الوسيط الفني لآلهة الأولمب التي كان اليونانيون مضطرين

---

[1] ولد فريدريك نيتشه (Friedrich Nietzsche) في 15 أكتوبر 1844 بمقاطعة سكسونيا بألمانيا من عائلة دينية، اشتغل أستاذا لفقه اللغة في جامعة بازل ثم استقال منه لتقدم له منحة على شكل معاش بسبب سوء حالته الصحية، انتهى به المطاف بانهيار عقلي أدى إلى جنونه في أواخر سنة 1888، توفي عام 1900 مخلفا الكثير من المؤلفات الهامة: مولد التراجيديا، إنسان مفرط في إنسانيته، الفجر، هكذا تكلم زراداشت، أصل الأخلاق وفصلها، أفول الأصنام، هذا الإنسان، إرادة القوة

[2] فريدريك نيتشه، مولد التراجيديا، ص 92..

[3] فريدريك نيتشه، مولد التراجيديا، ص94.

[4] حسن نعمة، الميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، ص 77 .

جدا لخلقها من أجل البقاء"[1] يبدو أن خلق اليونانيين لآلهة الأولمب قد كان نتيجة حاجةٍ ملحةٍ تطلّبها الصراع المرير مع قوى الطبيعة العملاقة[2] التي أعدمت الثقة في قلوبهم، كما استدعاها حوار الأجيال اللاحقة مع ماضيها العتيق الذي التقفته عن طريق السرد، بالإضافة إلى أن ما عاشه الأجداد من محن ومعاناة مريرة وتناقضات عجيبة قد ولّد لديهم شكا وحيرة وقلقا تجاه قوى متناقضة لا يمكن الوثوق فيها، وإلا بم يمكن تفسير ما حصل مع **بروميثيوس**[3]؟ ذاك التيتاني العملاق الذي لقي عذابا نكرا نتيجة إعانته للبشر، بسرقته النار من زوس كبير الآلهة وتحايله عليه في توجيه اختيارهم للنصيب الأجود من القرعة، بم يمكن توقي ذلك الشعور المخيف والحيرة الناجمة عن معاقبة زوس لبروميثيوس مع أنه أخلص له ردحا من الزمن، كيف يمكن التصدي لتلك التناقضات التي تنتاب البشريين حين يعلمون أن زوس الإله ظالم ومخادع؟ أي علاج لتلك الحيرة التي تغزو تصورات اليونانيين حين يدركون أن السعي إلى الخير قد يؤدي إلى الهاوية وغضب الآلهة؟ إلا بالشك في تلك القوى الغامضة الظالمة ووجوب التوقي منها أو البحث عن بديل للخلاص

[1] فريدريك نيتشه، مولد التراجيديا، ص94.

[2] "أصل كلمة العمالقة (جوتون) يعود إلى اللغة الهندو-أوروبية، فهي تعني الأكل، ذلك أنه في القديم حل في أوروبا شعب عملاق من أكلة لحوم البشر، فدبّ الرعب في كل الشعوب المجاورة وأطلقوا عليهم اسم الجوتون، أي الأكلة، ولكن هذا الاسم صار يطلق على كل ما هو ضخم وعملاق، وصار إحياء لعناصر الطبيعة وتجسيدها، وبما أن قوى الطبيعة جبارة لا تقاوم فقد أطلقوا عليها العبارة ذاتها، مما جعل للعمالقة أعراقها الخاصة، بالإضافة إلى ذلك صاروا يرون كل بشري ضخم الجثة عملاقا متوحشا. وبالطبع وزعوا عمل الطبيعة على هؤلاء العمالقة. فمثلا الهزات الأرضية هي من عمل عمالقة الجحيم، أما البراكين والبرق المدمر فهي من عمل عمالقة النار، وأما الجليد والصقيع والانهيارات الثلجية وثوران البحار والأنهار فيعزى إلى عمالقة الغابة" حنا عبود، الميثولوجيا العالمية، ص 200.

[3] (ساعد بروميثيوس البشر مرتين: الأولى: وقت تقدمة الذبيحة في (ميكونه: Mèconè) حيث شطر الثور (التقدمة) إلى قسمين وخدع الإله زوس بإعطائه الحصة الرديئة التي تحوي عظاما وترك الحصة التي تحوي لحما للبشر، والأخرى حين سرق النار من دائرة الشمس وحملها إلى الناس بعدما حرمهم زوس منها)، أسطورة بروميثيوس: اسخيلوس، مسرحيات اسخيلوس، من 55 إلى 60/ النار والنور، من ص 144إلى 148/ حنا عبود، الميثولوجيا العالمية، ص104، 338.

من تهديدها، بم يمكن تفسير السر الغامض الذي حوّل **أوديب**[1] من ملك عادل إلى منتهك للمحظور بقتله أباه وسفاحه لأمه. كيف يعاقب ملك عادل حكيم على ذنب لم تكن له يد فيه؟ أي عدل ذاك الذي يجعل الإنسان آثما ومظلوما في الوقت عينه؟ أي عدالة تلك التي يقوم فيها الإله (أبولو) بتحريض (**أوريستوس**)[2] على الثأر لأبيه بقتل أمه المجرمة؟ وبعد سفكه لدمها تقوم آلهات العذاب بملاحقته ومعاقبته فقط، لأنه استمع لأوامر ذاك الإله، كيف تقوم آلهة بتحريض البشريين على ارتكاب المحظور ثم تتركهم يعانون ويلات جرائم طبقوا فيها أوامرها؟ كيف يمكن مواجهة كل هذه الأمور إلا بخلق آلهة يفسرون بها ما يحصل لهم وما ينتابهم من حيرة، أسكنوها جبل الأولمب بعدما حاكوا حولها الكثير من الأساطير، فقط لقهر الشعور بالخوف الذي لازمهم.

ولعل نيتشه هنا قد اعتمد على ما وصل إليه من الأساطير اليونانية القديمة سيّما تلك التي صورها الشاعر اسخيلوس في مسرحياته، والتي "يجمع فيها بين اللعنة وفكرة الانتقام والأهواء الإلهية الجامحة، وبين الرحمة والعناية الإلهية. ويمزج بين القدرة الإلهية التي تفرض مشاركة الإنسان في صيرورتها، وبين عدالة زيوس التي تعاقب الظلم والتعسف، وإن كانت هي نفسها التي تدفع الإنسان نحو الخير أو الشرّ وتجعله بريئا أو مذنبا"[3] وفي عبارة مؤكدة يختصر نيتشه إجابته عن السؤال الذي طرحه آنفا فيقول "إن الدافع عينه الذي يتمثل بأبولو هو الذي خلق ذلك العالم الأولمبي بأكمله. وفي هذا المعنى يمكن أن ننظر إلى أبولو كأب لهذا العالم الأولمبي."[4]

ويجنح نيتشه في شرحه لهذه الإجابة إلى الجانب الجمالي، ليقدم لنا مشابهة طريفة استقاها من الطبيعة، حيث شبّه ميلاد هذه الآلهة من الأصول التيتانية المتوحشة ببروز الزهور من شجيرات الزعرور الشائكة إذ يقول: "ويمكن لنا أن نتخيّل أصل هذه الآلهة على النحو التالي: الدافع الأبولي نحو الجمال أدى تدريجيا وعلى مراحل، إلى انبثاق النظام الأولمبي لآلهة الفرح من

[1] للاطلاع على أسطورة أوديب مختصرة، سيد حامد النساج، البناء الدرامي للمأساة عند أرسطو، دار غريب للطباعة، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص 41.

[2] أسطورة أوريستوس مختصرة، اسخيلوس، مسرحيات اسخيلوس، ترجمة: أمين سلامة، القاهرة، مكتبة مدبولي، (ط-1)، 1989، من ص 61 إلى 64

[3] عبد الواحد ياسر، حياة التراجيديا في فلسفة الجنس التراجيدي وشعريته، الرباط، منشورات الاختلاف، (ط- 1)، 2011، ص 89.

[4] فريدريك نيتشه، مولد التراجيديا، ص 92.

النمط الأصلي التيتاني (آلهة العمالقة) وانتشاره، كما تبرز الزهور من شجيرات الزعرور الشائكة، وإلا كيف يمكن بغير ذلك تفسير احتمال هذه السلالة الرقيقة بما يحركها من دوافع وتطلعات فوارة ، هذه الجماعة الإنسانية الجديرة بمواجهة الآلام التي تصور أنها تحيط بآلهتهم؟ إن هذا الدافع ذاته هو الذي يدعو إلى الإبداع الفني، وهو الدافع للتأليه والتكامل بالكون، والذي أوجد العالم الأولمبي كعالم أصبح بمثابة مرآة استخدمتها الإرادة الهيلينية لرؤية نفسها وهي تتكوّن. ولهذا توفر الآلهة مبررا لحياة الإنسان والاستمرار بالعيش – وهو الشكل الوحيد المقنع لاعتقادهم بالعناية الإلهية درءا للشر Theadicy. "[1]

وعليه فخلق اليونانيين لتلك الآلهة ما هو إلا واسطة ابتدعوها لإخفاء ذلك الخوف والعيش بهدوء في ظل تهديد مغلّف بالاعتقاد.

خاتمة:

أخيرا واستنادا إلى المعلومات الواردة سابقا يمكن تسجيل بعض النتائج:

إن الاحتكاك الدائم بين الأفراد، والذي ينجم عنه أحيانا فهم أو تفهّم ثم تعايش، وفي معظم الأحيان فهم وتصدي ثم صراع دائم بدوام التقاء المصالح، ونادرا ما ينتج عنه عجز دائم ثم خوف ثم رضوخ، قد جعل الإنسان البدائي يدرك أن صراعه مع قوى الطبيعة التي تفوقه قوة هي مجازفة لا انتصار فيها، لذا فضّل الإذعان لها على تصديها. وبما أن العجز الدائم يولّد خوفا دائما، فإن رضوخ الشعوب البدائية لتلك القوى قد غلّفه خوف رهيب سرعان ما تحوّل إلى اعتقاد مفاده أن وراء تلك القوى آلهة تقودها، لكنها لا تختلف عنه لا في شكلها ولا في طباعها بل في قوتها، ذلك أنها تتمتع بالرغبات والشهوات نفسها وتصدر عنها سلوكات كالتي تصدر عن البشر، فالغيرة والحسد والكراهية كلها طباع قد استنتجها من خلال عدم رأفتها به وقت المحن، لكنه أدرك في المقابل أن القوي يمكن إرضاءه ولو مؤقتا، لهذا حاول إرضاءها بشتى السبل لنيل خيرها من غيث وزرع ونور. ولعل ذلك ما جعل الفيلسوف فريدريك نيتشه يسبر أغوار هذه القضية ليؤكد أن ما دفع اليونانيين إلى خلق ذلك العالم الأولمبي، والذي يعج بالآلهة ما هو في الواقع إلا تغليف للخوف الذي كان ينتابهم نتيجة خوفهم الدائم من قوى الطبيعة، والتناقضات التي تحصل أمامهم، كما أنهم شخصوا تلك الآلهة في هيئة بشرية ليقربوا صورتها إليهم ويتمكنوا من صنع آلهة معادلة

[1] فريدريك نيتشه، المصدر نفسه، ص 94،95

لقوى الطبيعة تحميهم شرور القوى الظالمة، وبالتالي فهم شأنهم شأن الشعوب القديمة الأخرى قد وجدوا حيلة لتفادي الخوف استخرجوها من الطبيعة ضد الطبيعة.

قائمة المراجع:

1. أرسطو، الخطابة، ترجمة: عبد القادر قنيني، المغرب، أفريقيا الشرق، د.ط ، 2008.
2. ثامر عباس، تقديس الزعامة دراسة في ظاهرة الكاريزما السياسية، الجزائر/ الرباط، منشورات الاختلاف/ منشورات ضفاف، ط – 1/ 2015،
3. جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، ترجمة: عالم المعرفة، الكويت، 1984.
4. جيمس فرايزر، الغصن الذهبي في دراسة السحر والدين، ترجمة: نايف الخوص، دار الفرقد للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، (ط – 1)، 2014.
5. حربي عباس عطيتو، اتجاهات التفكير الفلسفي عند اليونانين، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، (ط- 1)، 2013.
6. حسن نعمة، معجم الميثولوجيا القديمة، بيروت، دار الفكر اللبناني. 1994
7. حسين الشيخ، ديانات الأسرار والعبادات الغامضة في التاريخ، لبنان، دار العلوم العربية للطباعة والنشر، 1994
8. حنا عبود، الميثولوجيا العالمية، سوريا، إتحاد الكتاب العرب، 2009
9. سيد حامد النساج، البناء الدرامي للمأساة عند أرسطو، دار غريب للطباعة، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)
10. عبد الواحد ياسر، حياة التراجيديا في فلسفة الجنس التراجيدي وشعريته، الرباط، منشورات الاختلاف، (ط- 1)، 2011
11. فريدريك نيتشه، مولد التراجيديا، سوريا، دار الحوار للنشر والتوزيع، 2008
12. فضيلة عبد الرحيم حسين، فكرة الأسطورة وكتابة التاريخ، الأردن، اليازوري، ط 1، 2009.
13. محمد خريسات وآخرون، تاريخ الحضارة الإنسانية، دار الكندي للنشر والتوزيع، 1999.
14. مسرحيات اسخيلوس، ترجمة: أمين سلامة، القاهرة، مكتبة مدبولي، (ط-1)، 1989.
15. ول ويريل ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع/ المنظمة العربية للتربية، بيروت/ تونس، المجلد الثاني، 2000.